الفتـــــاة الضـــــالة

ذَاتَ مَساءٍ كانَ إبْراهِيمُ وَأُخْتُهُ نَعِيمَةُ يُطِلاَّنِ مِنْ نَافِذَةِ حُجْرَتِهِما ، وَيُرْقُبانِ الْمارَّةَ يُهْرَعُونَ إلَى هُنَا وَإلَى هُنَاكَ هَرَباً مِنَ الْمَطَرِ الْمُتَسَاقِطِ . وَعَلَى حِينِ فُجَاءَةٍ صَاحَتْ نَعِيمَةُ : « مَا أَشَدَّ الْبَرْدَ فِى هٰذِهِ اللَّيْلَةِ ! وَدِدْتُ لَوْ تَعُودُ أُمِّى الآنَ ! »

فَأَجَابَهَا إبْرَاهِيمُ ، وَكَانَ يَكْبَرُهَا بِعَامَيْنِ : « أَلا تَعْلَمِينَ أَنَّ هٰذِهِ لَيْلَةُ الْعِيدِ ، وَأَنَّ أُمَّكِ لَنْ تَعُودَ إلاَّ فِى سَاعَةٍ مُتَأَخِّرَةٍ . مِسْكِينَةٌ أُمِّى ، لا بُدَّ أَنْ يَكُونَ عَمَلُهَا كَثِيراً وَشَاقّاً فِى لَيَالِى الْعِيدِ . »

فَقَالَتْ نَعِيمَةُ : « نَعَمْ ، نَعَمْ ، هٰذِهِ لَيْلَةُ الْعِيدِ . هَلْ نَظُنُّ ، يا إبْرَاهِيمُ ، أَنَّ أُمِّى سَتُحْضِرُ لَنَا مَعَهَا الْهَدَايَا وَاللُّعَبَ ؟ » فَهَزَّ إبْرَاهِيمُ رَأْسَهُ ، وَقَالَ : « كَلاَّ يا نَعِيمَةُ إنَّ الْهَدَايَا وَاللُّعَبَ لا تَأْتِى لِلأَطْفَالِ الَّذِينَ لا أَبَ لَهُمْ . وَلٰكِنْ لا تَحْزَنِى ، فَسَوْفَ أَصْنَعُ لَكِ فِى الصَّبَاحِ « عَرُوساً » مِنَ الْوَرَقِ جَمِيلَةً . » ثُمَّ أَمْسَكَ بِذِرَاعِ أُخْتِهِ فُجَاءَةً ، وَقَالَ : « انْظُرِى يا نَعِيمَةُ ! »

وَأَشَارَ بِيَدِهِ إلَى بِنْتٍ صَغِيرَةٍ حَافِيَةِ الْقَدَمَيْنِ بَالِيَةِ الثِّيَابِ ، كَانَتْ تَتَعَثَّرُ فِى سَيْرِهَا تَحْتَ مِيَاهِ الْمَطَرِ الْمُتَسَاقِطِ .

وَصَاحَتْ نَعِيمَةُ : « يا لِلْمِسْكِينَةِ !! إنَّهَا تَرْتَعِدُ مِنْ شِدَّةِ الْبَرْدِ . وَلَيْسَ مِنْ أَحَدٍ يُحْسِنُ إلَيْهَا !! »

فَقَالَ إبْرَاهِيمُ : « يا لَلْعَارِ ! ! كَمْ أَوَدُّ أَنْ أُسَاعِدَهَا !! »

فَأَجَابَتْ نَعِيمَةُ : « وَأَنَا أَيْضاً أَشْعُرُ بِمِثْلِ شُعُورِكَ . »

ثُمَّ نَظَرَتْ إلَى الْمِنْضَدَةِ الصَّغِيرَةِ ، وَلَمْ يَكُنْ عَلَيْهَا غَيْرُ رَغِيفٍ وَاحِدٍ وَقِطْعَةٍ مِنَ الْجُبْنِ ، وَصَاحَتْ قَائِلَةً : « وَلٰكِنْ مَاذَا نَصْنَعُ ، وَلَيْسَ لَدَيْنَا غَيْرُ عَشَائِنَا ؟ »

فَقَالَ إبْرَاهِيمُ : « إنِّى لا أَشْعُرُ بِجُوعٍ شَدِيدٍ ، وَلِذٰلِكَ أُعْطِيهَا نِصْفَ نَصِيبِى . »

فَقَالَتْ نَعِيمَةُ : « وَأَنَا أَيْضاً لا أَشْعُرُ بِجُوعٍ شَدِيدٍ ، وَلِذٰلِكَ فَسَأُعْطِيهَا نِصْفَ نَصِيبِى أَيْضاً . هَيَّا يا إبْرَاهِيمُ ، نَادِهَا ، وَأَنَا عَلَى ثِقَةٍ مِنْ أَنَّ أُمِّى لَنْ تَغْضَبَ لِذٰلِكَ . »

وخرج إبراهيم ونعيمة إلى الشارع لاحضار البنت المسكينة

خَرَجَ إبْرَاهِيمُ وَنَعِيمَةُ إلَى الشَّارِعِ ، وَأَسْرَعَا

إِلَى حَيْثُ كَانَتِ الْبِنْتُ الْمِسْكِينَةُ. فَوَجَدَاهَا تَبْكِي بُكَاءً حَارًّا. فَقَالَ لَهَا إِبْرَاهِيمُ: «لَا تَبْكِي، وَهَلُمَّ مَعَنَا نَتَنَاوَلُ الْعَشَاءَ.» فَتَوَقَّفَتِ الْبِنْتُ عَنِ الْبُكَاءِ وَتَبِعَتْهُمَا إِلَى حُجْرَتِهِمَا. وَأَخَذَ إِبْرَاهِيمُ يُقَسِّمُ الْخُبْزَ وَالْجُبْنَ بَيْنَهُمْ. وَبَدَأَتِ الْبِنْتُ بِالْتِهَامِ الطَّعَامِ بِسُرْعَةٍ، وَهُمَا يَرْقُبَانِهَا فِي عَطْفٍ شَدِيدٍ.

وَسَأَلَهَا إِبْرَاهِيمُ: «هَلْ لَكِ أُمٌّ؟» فَأَجَابَتْ كَلَّا، وَفَوْقَ ذَلِكَ فَإِنَّ وَالِدِي فَقَدَنِي.» قَالَ إِبْرَاهِيمُ: «مَاذَا تَعْنِينَ؟؟» قَالَتْ: «كُنْتُ أَعِيشُ مَعَ وَالِدِي فِي بَيْتٍ كَبِيرٍ. أَذْكُرُ ذَلِكَ جَيِّدًا. وَذَاتَ يَوْمٍ اخْتَطَفَتْنِي عَجُوزٌ وَذَهَبَتْ بِي إِلَى حَيْثُ لَا أَعْلَمُ وَجَعَلَتْنِي أَسْتَجْدِي تَارَةً، وَأَجْمَعُ أَعْقَابَ لَفَائِفِ التَّبْغِ (السَّجَائِرِ) تَارَةً أُخْرَى. وَإِنِّي لَأَخْشَى أَنْ أَعُودَ إِلَيْهَا اللَّيْلَةَ، وَيَدِي خَالِيَةٌ.» قَالَتْ ذَلِكَ وَأَخَذَتْ فِي الْبُكَاءِ مِنْ جَدِيدٍ. فَقَالَ إِبْرَاهِيمُ: «لَا تَعُودِي إِلَيْهَا، وَابْقَيْ هُنَا حَتَّى تَهْتَدِي إِلَى أَبِيكِ وَبَيْتِكِ. أَيْنَ يُقْطَنُ وَالِدُكِ؟» فَقَالَتْ: «لَا أَدْرِي، فَقَدْ نَسِيتُ نِسْيَانًا تَامًّا.» وَهُنَا دَخَلَتِ الْوَالِدَةُ، وَقَدْ بَلَّلَهَا مَاءُ الْمَطَرِ، وَبَدَتْ عَلَيْهَا مَظَاهِرُ التَّعَبِ الشَّدِيدِ. فَدُهِشَتْ لِرُؤْيَةِ الْبِنْتِ الْغَرِيبَةِ. وَلَكِنَّهَا سُرَّتْ كَثِيرًا عِنْدَمَا سَمِعَتْ بِمَا جَرَى وَعَطَفَتْ عَلَيْهَا أَشَدَّ الْعَطْفِ.

وَمَا بَدَأَ إِبْرَاهِيمُ أَنْ يَقُصَّ عَلَى أُمِّهِ نَبَأَ الْفَتَاةِ حَتَّى صَاحَتْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الدَّهَشِ: «مَاذَا أَسْمَعُ!! لَقَدْ جَاءَ الْيَوْمَ قَرِيبٌ لِلسَّيِّدِ الَّذِي أَعْمَلُ فِي بَيْتِهِ، وَسَمِعْتُ أَحَدَ الْخَدَمِ يَقُولُ: إِنَّ ذَلِكَ الرَّجُلَ قَدْ فَقَدَ ابْنَتَهُ الْوَحِيدَةَ مُنْذُ ثَلَاثِ سَنَوَاتٍ، وَإِنَّهُ إِلَى الْيَوْمِ لَا يَسْتَطِيعُ إِلَيْهَا سَبِيلًا. وَمَنْ يَدْرِي فَقَدْ تَكُونُ هِيَ. سَأَعُودُ حَالًا. أَمَّا أَنْتُمَا فَاذْهَبَا إِلَى فِرَاشِكُمَا.» ثُمَّ خَرَجَتْ مَعَ الْبِنْتِ، بَعْدَ أَنْ أَلْبَسَتْهَا حِذَاءً نَعِيمَةَ وَمِعْطَفَهَا.

وسرت الأم كثيراً عند ما سمعت بما جرى

وَأَوَى إِبْرَاهِيمُ وَنَعِيمَةُ إِلَى فِرَاشِهِمَا يَتَرَقَّبَانِ مِنْ

دُونِ أَنْ يُغْمَضَ لَهُمَا جَفْنٌ . وَبَعْدَ انْتِظَارٍ طَوِيلٍ إِذَا بِالْبَابِ يُفْتَحُ وَتَدْخُلُ مِنْهُ وَالِدَتُهُمَا ، وَمَعَهَا رَجُلٌ قَدْ حَمَلَ بَيْنَ يَدَيْهِ عَدَدًا مِنَ الصَّنَادِيقِ وَالْعُلَبِ

ودخل عليهما رجل قد حمل بين يديه عدداً من الصناديق والعلب

التى أُلْقِىَ بِهَا عَلَى الْمِنْضَدَةِ الصَّغِيرَةِ ، وَهُوَ يَقُولُ : « أَهَذَانِ هُمَا الْمَلَكَانِ اللَّذَانِ أَرْسَلَهُمَا اللهُ لِيَرُدَّا بُثَيْنَةَ ابْنَتِى إِلَىَّ ؟ » إِذَنْ فَقَدْ كَانَ الرَّجُلُ وَالِدُ الْفَتَاةِ الضَّالَّةِ حَقًّا . وَقَدْ جَاءَ مُسْرِعًا يَحْمِلُ الْهَدَايَا وَاللُّعَبَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَنَعِيمَةَ ، إِظْهَارًا لِشُكْرِهِ لَهُمَا وَتَقْدِيرًا لِحُسْنِ صَنِيعِهِمَا .

وَفِى الصَّبَاحِ أَلْبَسَتِ الأُمُّ طِفْلَيْهَا مَلَابِسَ الْعِيدِ ، ثُمَّ قَالَتْ لَهُمَا : « هَيَّا ، فَنَحْنُ ذَاهِبُونَ إِلَى بُثَيْنَةَ ، وَسَنُقِيمُ مَعَهَا فِى مَنْزِلِهَا الْكَبِيرِ . فَقَدْ أَصْبَحَتْ مِنَ الْيَوْمِ مُرَبِّيَةً لَهَا . وَهَكَذَا كَانَ الْيَوْمُ عِيدًا حَقًّا لِلْجَمِيعِ .

أقزام الاشجـــــار

لايُحِبُّ الْبَابَانِيُّونَ أَنْ يُقَالَ عَنْهُمْ إِنَّهُمْ قِصَارُ القامةِ ولكنَّ هـذه الأشجارَ الصغيرةَ الجسمِ تَدُلُّ عَلَى حُبِّهِمْ للأشياءِ الصغيرةِ . فهذه الأشجارُ وأمثالُها يُرَبِّيها بعضُ الْبُسْتَانِيِّينَ ، وتبقَى هكذا صغيرةً مِئاتِ السِّنينَ ، مَعَ أَنَّهُ إذا زُرِعَتِ البذُورُ التى تُؤْخَذُ مِنْهَا ، وَتُرِكَتْ تَنْمُو نُمُوًّا طَبَعِيًّا ، فإنَّها تَصيرُ أشجاراً كبيرةً ضَخْمَةً مِثلَ غيرِها من نَوْعِها .

أمَّا طَرِيقَةُ تَرْبِيَةِ هـذه الأشجارِ فَتَنْحَصِرُ فى مُعَاكَسَةِ أسبابِ النُّمُوِّ الطَّبَعِيَّةِ . فالْبُسْتَانِىُّ لا يَسْمَحُ لها إلا بالقَليلِ من الضَّوْءِ والماءِ ، ويُبْقِى جُذُورَها دائماً فى أَوَانٍ صغيرةٍ — ولو نُقِلَتْ هذه الأشجارُ إلى الأرضِ بعدَ أنْ بَلَغَتْ هذه الأعْمَارَ الطَّوِيلَةَ لأخَذَتْ تَنْمو وتَكْبُرُ من جَديدٍ ، حتى تَصيرَ أشجاراً ضَخْمَةً كأمْثالِها فى الطَّبيعَةِ .

شجرة عمرها أكثر من ٨٠ سنة

شجرة عمرها ٢٥٠ سنة

شجرة عمرها ١٣٠ سنة

شجرة عمرها أكثر من ٦٠ سنة